الخيانة الحاكمية زمن الغزوالتترى للعراق والشام" قراءة فى المصادر العربية

د. علاء طه رزق *

نظرية الغزوالتتري وعلاقتها بالخيانة الحاكمية*:

بينما وقف جنكيز خان [١] يرنوببصره إلى ما وراء الهضبة التي يقطنها بنوجلدته من التتر (المغول) [٢] إذ به يستحضر في خاطرة كلمات تلقاها في طفولته على يد معلمه الأول تقول :

" إن بلادنا مهما اتسعت فلن تبلغ جزءاً من مائة من أرض الخطا [٣] أما السبب الذي جعلنا قادرين على العيش إلى جوار تلك البلاد حتى الآن فهوكوننا قوم رحل نحمل متاعنا وزادنا أينما توجهنا ، وقد أكسبتنا الظروف خبرة واسعة فنحن إذ تمكنا غزونا، وغنمنا ، وإذا عجزنا تواريا واختفينا ، أما إذا بدأنا نشيد البلدان ونقيم المدن تغيرت عاداتنا وطباعنا القديمة التي توارثناها على أسلافنا الأمجاد ولن تقوم لنا بعدها قائمة ، ولا تنس يا بني أن الأديرة والمعابد تورث وداعة الأخلاق وتدعوإلى لين الخلق وتحبذ الرقة والهدوء ، مع أنه لن يسود البشر غير المقاتل القوي"[٤].

هكذا استحضر جنكيز خان" تيموجين" تعاليم معلمه الأول ليقيم عليها منهجه في الحياة

ودستور دولته في أوقات السلم والحرب. والذي يقوم على الشر والغدر وسفك الدماء من أجل البقاء، وهذه التعاليم الصارمة ظلت عنوانا ثابتاً للغزوات التترية على مر العصور والأزمنة.

---

* أستاذ مساعد قسم التاريخ كلية الاداب – جامعة المنصورة – فرع دمياط

* الخيانة: من خان الشيء (خان، خوناً، خيانة) أي لم يؤد أمانته ومنها "أختان" لمن خان نفسه أو حاول الخيانة (المعجم الوسيط، المكتبة الإسلامية، استامبول، د.ت.) ج١، ص ٢٦٣.

والخيانة الحاكمية: ترتبط بالنظم السياسية الحاكمة في أنماطها المختلفة (خليفة، سلطان، ملك، أمير، والي، ...إلخ) ، والتي خانت الله والوطن من أجل الثبات على مظاهر السلطة والثروة (الباحث).

وعلى الرغم مما تحقق للفتى" تيموجين" بعد ذلك من مكانة رفيعة بين قومه الـذين انتخبوه في مؤتمر عام [١]زعيماً لهم ولقبوه بالسيد الأعظم أو" جنكيز خان" فإنه لم ينس لحظة واحدة تعاليم أستاذه الأول التي حفظها عن ظهر قلب وصارت مدداً له في كل غاراته التوسعية وبموجب هذه الزعامة الكبرى شرع في بسط نفوذه علـى سائر القبائل التترية الأخرى مثل قبائل القلموق، و القرغيز، والقفجاق وغيرها من القبائل التي شغلت في بداية الأمر مساحة جغرافيـة مـن الأرض فـي المنـاطق المتاخمة لشمال الصين فضلا عن مناطق سيبيريا والتركستان وبلاد القرغيز، ثـم أتسع المدلول الجغرافي لبلاد التتار ليشمل إقليم منغوليا والذي ينسب إليه " المغول" أوالمنغوليون [٢].

ولكن طموحات"جنكيز خان"لم تقف عند حدود الزعامة لعدد من القبائل البدائية في هذه المساحة الجغرافية، بل امتدت هذه الأطماع إلى أراضي الإمبراطوريـات الكبرى في" الصين"و" الخطا" غرباً حتى وصل بإطماعـه إلـى حـدود الدولـة الإسلامية ليقيم إمبراطورية امتدت من شبه جزيرة كوريا إلى بولندا فـي أوروبـا الشرقية.

ولكن سيادة هذا العالم لن تتحقق بالنـسبة لجنكيـز خـان إلا بغزوالمـشرق الإسلامي والسيطرة على ثرواته وموارده ليصبح جديرا بلقب"الحاكم الأعظم"أو"ملك ملوك العالم"، ولم لا ؟ أليس تحت قيادته أفضل المقاتلين الذين تم تدريبهم على كل وسائل القتل والتخريب والتدمير في إطار تعاليم" اليساق" [٣] التي تنص على أنه" لن يسود البشر غير المقاتل القوي" – وأنه لابد من القضاء على بقية الأجناس بكافـة الوسائل المشروعة وغير المشروعة !

وقد بدأت أولى المواجهات بين التتار تحت حكم جنكيز خان وحكام العـالم الإسلامي سنة ٦١٦هـ/ ١٢١٩م عندما أغاروا على أراضى الدولة الخوارزميـة تحت حكم علاء الدين محمد بن خوارزم شاه – وكان سبب ذلك هـوالنزاع علـى الحدود بين التتار والمسلمين ، والذي أوجد حالة من التوجس بين الدولتين أسفرت

فى النهاية عن إغارة التتار على بلاد المسلمين والزحف صوب سمرقند كبرى مدن ما وراء النهر في المنطقة الأسيوية المتاخمة للعراق، وفى هذا يقول المقريـــزى:" وفيها (٦١٦هـــ) ابتدأ ظهور التتار واستولوا على كثير من بلاد الإسلام. وأغاروا على أطراف بلاد السلطان علاء الدين محمد بن خوارزم شاه تكشن، ثم اســـتولوا على بخارى وغيرها من بلاد العجم" وفى السنة التالية" استولى التتر على سمرقند وهزموا السلطان علاء الدين وملكوا الرى وهمزان، وقزوين، وحـــاربوا الكـــرج، وملكوا فرغانة والترمد وخوارزم وخراسان ومروونيسابور، وطوس وهراة وغزنة" (١).

ويروي" ابن الأثير" الذي عاصر هذه الأحداث تفاصيل هذا الزحف التترى على بلاد العجم من المسلمين مبتدأ كلامه بقوله:" لقد بقيت عدة سنين معرضا عـــن ذكر هذه الحادثة استعظاما لها كارها لذكرها فأنا أقدم إليها رجلا وأؤخر أخرى فمن الذي يسهل عليه أن يكتب نعى الإسلام والمسلمين، ومن الذى يهون عليه ذكر ذلك فيا ليت أمى لم تلدني، ويااليتني مت قبل هذا وكنت نسينا منسيا إلا أنى حثني جماعة من الأصدقاء على تسطيرها" ويستطرد المؤرخ قائلا:

"فإن قوما خرجوا مـــن أطـــراف الـــصين فقـــصدوا بـــلاد تركـــستان مثـــل كاشغروبلاساغون ثم منها إلى بلاد ما وراء النهر مثل سمرقند وبخارى وغيرهمـــا فيملكونها ويفعلون بأهلها ما نذكره ثم تعبر طائفة منهم إلى خراسان فيفرغون منها ملكا وتخريبا وقتلا ونهبا ثم يتجاوزونها إلى الرى وهمذان وبلد الجبل، وما فيه من البلاد إلى حد العراق،ثم بلاد أذربيجـــان وأرانيـــه ويخربونهـــا ويقتلـــون أكثـــر أهلها،.....، ولقد بلى الإسلام والمسلمون في هذه المدة بمصائب لم يبتل بها أحد من الأمم"(٢).

وإذا كان المؤرخ ابن الأثير قد اهتزت مشاعره،وزلزلت الأرض من تحت قدميـــه حول ما فعله هؤلاء التتار"الملاعين" فان القارئ المنصف لأحداث تلك الفترة منـــذ ظهور التتار على مسرح العمليات القتالية مع المسلمين فى بدايـــة القـــرن الـــسابع الهجري/الثالث عشر الميلادي وحتى كانت نهايتهم المفجعة فـــى عـــين جـــالوت

سنة٦٥٨هـ /١٢٦٠م- يرى أن"الملاعين"من أرباب السلطة والثروة من حكام المسلمين الذين خانوا الدين والوطن، وباعوا أنفسهم وشعوبهم مقابل"أن يثبتوا على ما هم فيه"من مظاهر الجاه والنعيم، وهم الأجدر بأن تفرد لهم مساحات واسعة في المصادر المعاصرة ليكونوا عظة وعبرة للذين يلحقون بهم من الحكام على مر العصور بعد أن قلت حرمتهم بين شعوبهم. لماذا؟

لأن من يقرأ فى هذه المصادر – عامة – وفى تاريخ أحداث الغزوالتترى لبلاد المشرق العربى /الاسلامى- خاصة – يلاحظ أن العامل الرئيس فى هذا الزحف العنيف للتتار هوالخيانة العظمى التى ارتكبها عدد غير قليل من الحكام وأرباب الدولة فى العراق والشام،وما كان جنكيز خان (ت ٦٢٤ هـ/ ١٢٢٧م)يستطيع أن يتقدم خطوة واحدة فى اتجاه الأراضى العربية الإسلامية إلا بدعوة شخصية من أحد هؤلاء الخونة أيا كانت مسميا تهم الحاكمية (خليفة، سلطان، ملك وزير،أمير، والي،.....الخ) [١].

والظاهرة الواضحة فى المصادر التاريخية العربية، بل والأدبية[٢] أيضا هي أن التتار فى جميع غزواتهم على العراق والشام كانوا يعتمدون على شرذمة من الخونة تبدأ بالحاكم وتنتهي بأحد التجار أوالغلمان الذين يمارسون هذا النوع من الخيانة بأوامر هؤلاء الحكام.

ولكن يبدوأن المصادر التاريخية المعاصرة كانت شحيحة إلى حد كبير فى عرض صور هؤلاء الخونة فى الوقت الذي كانت فيه هذه المصادر سخية إلى حد الإسراف فى وصف الجرائم الفظيعة التي ارتكبها التتار فى حق شعوب العالم الإسلامى تاركة الجانب المسكوت عنه – والأهم – في رأيي- لقدرة القارئ على التحليل والاستنباط، وقراءة ما بين السطور، وهذا ما نحاول البحث فيه من خلال الصفحات التالية.

جذور الخيانة :

كانت بداية مسلسل الخيانة الحاكمية في العالم العربي زمن الغزوالتتري للمشرق الإسلامي في سنة ٦٢٢ هـ / ١٢٢٥ م عندما توترت العلاقات بين السلطان جلال الدين خوارزم شاه (ت ٦٢٨ هـ) والخليفة العباسي الناصر لدين الله

(ت ٦٢٢ هـ) مما دفع الخليفة العربي إلى طلب النجدة من التتار ولم يكن يدري وهوفي الأيام الأخيرة من عمره أنه يحفر قبر الخلافة العباسية بنفسه بموالاته لأعداء الإسلام المسلمين.

يقول ابن الأثير :" في أول هذه السنة وصل جلال الدين ابن خوارزم شاه محمد بن تكشن إلى بلاد خوزستان والعراق ، وكان مجيئه من بلاد الهند لأنه كان وصل إليها لما قصد التتر غزنة. ووصل إلى أصفهان وهي بيد أخيه غياث الدين. فملكها وسار منها إلى بلاد فارس. وسار إلى خوزستان فحاصر مدينة تتر في المحرم وبها الأمير مظفر الدين مملوك الخليفة الناصر لدين الله فحاصرة جلال الدين وضيق عليه وتفرق الخوارزمية ينهبون حتى وصلوا إلى ياداريا وباكسايا وغيرهما، وأنحدر بعضهم إلى ناحية البصرة فنهبوا هنالك. فسار إليهم شحنة البصرة وهوالأمير ملتكين فأوقع بهم وقتل منهم جماعة. فدام الحصار نحوشهرين ثم رحل عنها بغتة وكانت عساكر الخليفة مع مملوكة جمال الدين قشتمر بالقرب منه. فلما رحل جلال الدين لم يقدر العسكر على منعه فسار إلى أن وصل إلى يعقوبا وهي قرية مشهورة بطريق خراسان بينها وبين بغداد نحوسبعة فراسخ فلما وصل الخبر إلى بغداد تجهزوا للحصار وأسلحوا السلاح من الجروخ والقسي والنشاب والنفط وغير ذلك وعاد عسكر الخليفة إلى بغداد." [١]

ويقول المقريزي :" وفيها (٦٢٢ هـ) عاد السلطان جلال الدين بن خوارزم شاه إلى بلاده وقوي أمره على التتر واستولى على عراق العجم وسار إلى مردين وأخذها وسار إلى خوزستان وشاقق جلال الدين الخليفة الناصر لدين الله وسار حتى وصل يعقوبا وبينها وبين بغداد سبعة فراسخ فاستعد الخليفة للحصار،..." [٢]

وتذكر لنا المصادر أن الخليفة الناصر هذا –" كان رديء السيرة في رعيته ، ظالماً عسوفاً ، خرب العراق في أيامه وتفرق أهله في البلاد ، فأخذ أملاكهم وأحوالهم. وكان يحب جمع المال، ويباشر الأمور بنفسه ويركب بين الناس، ويجتمع بهم مع سفكه للدماء وفعله للأشياء المضادة فيغتصب الأموال ويتصدق،

وشغف برمي الطير بالبندق ، ولبس سراويل الفتوة وحمل أهل الأمصار على ذلك ، وفي خلافته ضرب التتر بلاد الشرق، حتى وصلوا إلى همذان وكان هو السبب في ذلك فإنه كتب إليهم بالعبور إلى البلاد"[١].

وكان الخليفة الناصر ومن بعده أبنه الظاهر بأمر الله (ت ٦٢٣ هـ) كانا أشبه بمن استجار من الرمضاء بالنار (التتار)، فكان سقوط مملكة خوارزم شاه على أيدي التتار ومقتل جلال الدين خوارزم شاه في ١٥ شوال سنة ٦٢٨ هـ [٢] نذير شؤم للخلفاء العباسيين حتى أنهم استغاثوا بالحكام الأيوبيين في الشام ومصر من غارات التتار فضلاً عن غارات القبائل العربية المتاخمة لحدود الدولة العباسية.

" وفيها (سنة ٦٢٨ هـ) قدم رسول الخليفة المستنصر بالله (ت ٦٤٠ هـ) بالخلع والتقليد للملك الكامل ،...."

" وفيها (سنة ٦٢٩ هـ) تكمل استيلاء التتر على إقليم أرمينية وخلاط وسائر ما كان بيد الخوارزمي (جلال الدين) فاهتم الخليفة المستنصر بالله غاية الاهتمام وسير عدة رسل يستنجد الأشراف من مصر،..." [٣]

ويبدوا أن الظروف السياسية والعسكرية في الشام ومصر لم تكن في صالح الخلفاء العباسيين الذين صاروا كخيال الظل للخلافة الإسلامية في الوقت الذي كانت فيه دولة سلاجقة الروم تعاني حالة من الوهن والخوار في مواجهة الأخطار الخارجية، بينما صار الحكام الأيوبيون كالأخوة الأعداء الذين اتفقوا على شيء واحد فيما بينهم ألا وهوالصراع على حكم مصر كل هذا والتتار يطوون الأرض طيا نحوالعراق حيث مقر الخلافة في بغداد.

وبعد وفاة جنكيز خان سنة ٦٢٤ هـ / ١٢٢٧م [١] تخلى التتار بشكل مؤقت عن مسلسل الغزوات في الجزء الغربي من القارة الأسيوية، وانشغلوا بإصلاحاتهم السياسية في الداخل خاصة أن زعيمهم الراحل – جنكيز – ترك فراغاً كبيراً يصعب ملؤه إلا بما أوتي حظاً من قدراته السياسية والعسكرية والنفسية، فضلاً عن أن الفكر العسكري التتري كان يقوم على نظام" الوثبات" السريعة والخاطفة

لتحقيق أهداف محددة يعقبها فترة من الراحة والاستعداد ثم التخطيط لعملية عسكرية جديدة لا يتم تنفيذها إلا بعد جمع المعلومات الكافية عن البلاد المراد غزوها، وبث الرعب في نفوس أهالي تلك البلاد (الحرب النفسية) كي تحقق النتائج المرجوة بأعلى معدلات النجاح.

وفي سنة ٦٢٨ هـ / ١٢٣١ م بدأ الزحف التتري من جديد [٢] صوب بلاد الدولة الخوارزمية الخاضعة آنذاك لحكم جلال الدين منكبر الذي عرف في كتابات المؤرخين" بقبح سيرته وسوء تدبيره" ولم يجد جلال الدين هذا وسيلة للدفاع سوى الفرار والاستغاثة بأمراء ديار بكر والجزيرة والخليفة العباسي ليكون معهم حلفاً ضد جحافل التتار التي كان هدفها في تلك المرة بلاد الشرق العربي ولكن" سبق السيف العزل" – كما يقولون – وباغت التتار جلال الدين قبل أن يصل إلى مبتغاه في ديار بكر مما دفعه إلى الهرب إلى بلاد الأكراد – شمال العراق – حيث كانت نهايته المأساوية على يد أحد الأكراد.

وبعد مقتل جلال الدين واصل التتار زحفهم على المدن العراقية وقتلوا ما يزيد عن خمسة عشر ألف نسمة، وبلغت ممارساتهم الوحشية بالعراق أبشع صورها حتى أن أحد المؤرخين الذين عاصروا الغزوالتتري لبلاد الشرق الإسلامي يصف لنا هول ما حدث بإحدى بقاع الموصل بقوله :

" اختفيت منهم ببيت فيه تبن فلم يظفروا بي، وكنت أراهم من نافذة في البيت فكانوا إذا أرادوا قتل إنسان فيقول (لا بالله) فيقتلونه. فلما فرغوا من القرية ونهبوا ما فيها وسبوا الحريم رأيتهم وهم يلعبون على الخيل ويضحكون ويغنون بلغتهم بقول (لا بالله)" [١] !

ويقول ابن الأثير – مؤرخ معاصر – :

" إنه بلغه عن مظاهر الرعب والذعر في روايات يكاد سامعها يكذبها من الخوف الذي ألقاه الله سبحانه وتعالى في قلوب الناس منهم (من التتار) كان يدخل التتري القرية أوالدرب وبه جمع كثير من الناس فلا يزال يقتلهم واحد بعد واحد لا يتجاسر

أحد بمد يده إلى ذلك الفارس ولقد بلغني أن إنساناً منهم أخذ رجلاً ولم يكن مع التتري ما يقتله به فقال له : ضع رأسك على الأرض ولا تبرح فوضع رأسه على الأرض ومضى التتري وأحضر سيفاً فقتله به" (٢).

ولقد قام التتار بحملات استطلاعية قبل غزوالعاصمة – بغداد – لمعرفة حجم القوات العربية والاستعدادات العسكرية لجيش الخلافة العباسة، وشملت هذه الحملات بعض المدن شمال العراق مثل" أربل" التي تعد البوابة الشمالية في الطريق إلى بغداد وكذلك" سامراء" عاصمة العراق زمن المعتصم (٣) وكانت أحداث تلك الحملات في الفترة من سنة ٦٣٢-٦٣٥هـ / ١٢٣٥ – ١٢٣٨ م حيث قتل فيها التتار أعدادا غفيرة من السكان ودمروا الكثير من القلاع والحصون دون الدخول في معارك تصادمية مع القوات المسلحة العراقية.

وفي الفترة من سنة ٦٣٥ هـ / ١٢٣٨ م إلى سنة ٦٤٩ هـ / ١٢٥١ م وهي السنة التي انتخب فيها منكوخان ليكون الخان الأعظم بعد سلفه جغطاي (١) جرت أحداث في المناطق المتاخمة للعراق.

فقد تعرضت أرض الجزيرة وديار بكر وميافارقين وغيرها من المناطق في شمال العراق إلى سلسة من الغارات بغرض دراسة أحوال العراق بوجه عام ومعرفة نقاط القوة والضعف في بناء الدولة العربية الإسلامية، وبالفعل كشفت هذه الغارات عن حالة الوهن في دولة الخلافة على مختلف الأصعدة السياسية والعسكرية والاقتصادية خاصة بعد سقوط الدولة الخوارزمية وانهيار حاجز الدفاع الأمامي للشرق العربي وتوقف حركة التجارة، وانقطاع طرق المواصلات بسبب غارات التتار شبه المستمرة على القوافل التجارية.

وفي سنة ٦٥٠ هـ / ١٢٥٢ م أرسل منكوخان حملة عسكرية بقيادة أخيه هولاكوالذي وصل إلى ديار بكر وميافارقين حيث ارتكب – هووقواته – أبشع الجرائم ضد سكان العراق الآمنين راح ضحيتها عشرات الآلاف ما بين قتيل وجريح وأسير ومشرد(٢)الأمر الذي جعل المؤرخين المعاصرين يصورون لنا التتار

في صورة العدو الذي لا يقهر متناسين بذلك المعادلة الصحيحة لقهر أي عدد مهما بلغت قوته وشراسته، تلك المعادلة التي تقوم على ركنين رئيسيين هما : وحدة القوى السياسية العربية" واعتصموا"، والإعداد الجيد لكل وسائل القوة والردع" وأعدوا" ومن ثم فإن غياب طرفي المعادلة يجعل كتابات المعاصرين في المصادر العربية أشبه بصفحات الوفيات والحوادث التي تثير الهلع والفزع في نفوس الناس مثلما ورد في أحداث هذه السنة (٦٥٠ هـ) وما بعدها:

" وفيها وردت الأخبار بأن منكوخان ملك التتر سير أخاه هولاكو لأخذ العراق فسار وأباد أهل بلاد الإسماعيلية قتلاً ونهباً وأسراً وسلباً ووصلت غاراته إلى ديار بكر وميافارقين وجاءوا إلى رأس عين وسروج وقتلوا ما ينيف على آلاف وأسروا مثل ذلك وصادفوا قافلة سارت

من حران تريد بغداد فأخذوا منها أموالاً عظيمة من جملتها ستمائة حمل سكر من عمل مصر وستمائة ألف دينار وقتلوا الشيوخ والعجائز وسرقوا النساء والصبيان معهم، فقطع أهل الشرق الفرات وفروا خائفين" (١).

ولكن الأدهى من كل هذا وأوردته لنا المصادر العربية بشكل مختصر عن تلك الجرائم العظمى التي أرتكبها أهل الدولة من الوزراء والأعيان ضد الخليفة العباسي اللاهي" الذي لا يعبأ بشيء" والتي تمثلت في خيانة الدين والوطن عندما باعوا أنفسهم إلى جواسيس التتار مقابل أن يكون لهم نصيب معلوم في السلطة والثروة بعد دخول التتار بغداد وسقوط الخلافة الإسلامية بها.

الخيانة الحاكمية العربية في العراق :

في سنة ٦٥٤ هـ دخل هولاكوبقواته إلى ارض فارس وبها قوات طائفة الإسماعيلية حيث قاتلهم قتالاً عنيفاً تمكن بعده من القضاء عليهم والاستيلاء على قلعتهم الحصينة، ليتجه بعد ذلك صوب العراق تمهيداً للقضاء على الخلافة العباسية في بغداد.

" وفيها وصلت جواسيس هولاكو إلى الوزير مؤيد الدين محمد بن العلقمي ببغداد وتحدثوا معه ووعدوا جماعة من الأمراء بعدة مواعيد ،...." (٢)

وهكذا تمكن هولاكو – قائد التتار – من تجنيد عدد من العملاء العرب في بلاط الخليفة العباسي المستعصم بالله عبد الله ليجعل منهم طابوراً خامساً على عادة التتار في اصطناع العملاء قبيل الهجوم المباشر على أي قطر من الأقطار، ويبدوأن الوزير علاء الدين بن العلقمي كان مهيئاً ومعداً أعداداً جيداً لتنفيذ مهام الخيانة بحيث صار يصانع التتار في سرية تامة

ويرسل إليهم كافة المعلومات والأخبار التي مكنتهم من غزوبغداد وإسقاط الخلافة وقتل الخليفة العباسي.

ومن ناحية أخرى فأن الوزير الخائن"ابن العلقمي" لم يكتف فقط بمراسلة التتار

وإمدادهم بالمعلومات والأخبار بل مارس نوعاً من الحرب النفسية ضد الخليفة العباسي وأهل العراق عامة من خلال نشر الشائعات حول قوة التتار وأسلحتهم وأساليب القتال التي يتفوقون بها على القوات العربية فضلاً عن مطالبته الدائمة للخليفة بتخفيض أعداد الجنود في جيش الخلافة والحد من الإنفاق العسكري، ومهادنة التتار إلى غير ذلك من أشكال ممارسة الخيانة"والخليفة في لهوه لا يعبأ بشئ".

وتروي لنا المصادر المعاصرة أن"هولاكو" دخل إلى بغداد قبل الغزوفي زي تاجر أعمى واجتمع بعدد من الوزراء وأكابر رجال الدولة ومن بينهم"مؤيد الدين" ، و"ابن الدبوس" وغيرهما من الذين خانوا الله ورسوله ولم يغادر بغداد إلا بعدما أتقن عمله معهم".

وفي سنة ٦٥٥ هـ / ١٢٥٧ م ثارت فتنة كبرى بين أهل السنة والشيعة (الرافضة) بإيعاز من الوزير ابن العلقمي فأمر رئيس الشرطة بالهجوم على أهل الكرخ في بغداد ومعظمهم من الرافضة وقتلوا عدداً كبيراً منهم مما أثار ضيق

الوزير ابن العلقمي – وكان شيعياً – فأرسل إلى التتار يحثهم على سرعة غزوبغداد بعد أن صارت صيداً سهلاً [١].

وفي ذي القعدة سنة ٦٥٥ هـ / ١٢٥٧ م تحرك هولاكووقواته من مقره في همدان – بعد قضائه على الطائفة الإسماعيلية – وزحف مباشرة صوب بغداد وبعث يطلب الضيافة من الخليفة العباسى وفي هذا يقول المقريزي :

" وفيها قوي هولاكوابن تولي ابن جنكيز خان، وقصد بغداد وبعث يطلب الضيافة من الخليفة فكثر الإرجاف في بغداد، وخرج الناس منها إلى الأقطار، ونزل هولاكوتجاه دار الخلافة وملك ظاهر بغداد وقتل من الناس عالماً كبيراً " [٢].

وفي أول صفر ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م أصدر هولاكوأوامره بالهجوم الشامل على أنحاء بغداد ليعيثوا فيها فساداً ، وفي اليوم الرابع من هذا الشهر استسلم الخليفة العباسي المستعصم وسلم عاصمة الخلافة للتتار دون قيد أوشرط ،وبعدها بعشرة أيام قتل الخليفة ، وأعمل التتار سيوفهم في أبدان المسلمين.

ولندع المقريزي يصف لنا بقلمه هذا الحدث :

"وفيها (سنة ٦٥٦ هـ) ملك هولاكوبغداد وقتل الخليفة العباسي المستعصم بالله عبد الله في سادس صفر فكانت خلافته خمس عشرة سنة وسبعة أشهر وستة أيام، وانقرضت بمهلكة دولة بني العباس وصار الناس بدون خليفة إلى سنة تسع وخمسين وستمائة،...، وقتل الناس ببغداد وتمزقوا في الأقطار وخرب التتر الجوامع والمساجد والمشاهد وسفكوا الدماء حتى جرت في الطرقات، واستمروا على ذلك أربعين يوماً وأمر هولاكوبعد القتلى فبلغت نحوالألفي ألف قتيل، وتلاشت الأحوال بها، وملك التتر أربل ودخل بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل في طاعتهم" [١]، وكانت تلك هي المرة الأولى التي تقع فيها الخلافة أسيرة لغير المسلمين.

وبعد أن تمت فصول مؤامرة غزوبغداد بقتل الخليفة وولده وسط ذهول ملايين من المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها إذ كانت تلك المرة الأولى التي تقع فيها عاصمة الخلافة أسيرة في أيدي هذه الجحافل البشرية الوثنية، وبعد أن

تغلب منطق الخيانة السائد بين الأنظمة السياسية الحاكمة في العراق والشام على كل المشاعر الدينية الراسخة في نفوس المسلمين تحولت أحداث الخيانة إلى فصل روائي في أشهر كتب الأدب الشعبي إطلاقاً وهو" سيرة الظاهر بيبرس"التي تشير صراحة إلى خيانة الوزير ابن العلقمي للخليفة العباسي ودوره في الغزوالتتري للعراق ونهايته المأساوية جزاء هذه الخيانة.

يقول الراوي:

" كان من قديم الزمان وسالف العصر والأوان، وبعد أن توفي إلى رحمة الله المعتصم بالله وتولى الخلافة بعد الواثق بالله ولده، وتولى المقتدي بالله وهوشعبان،....، وكان له وزير يقال له العلقمي فسار الملعون هلاون في ستين ألف من الفرسان، وكلهم يعبدون النيران دون الملك الديان راكبين خيول مثل الغيلان، وساروا يقطعون البراري والوهاد طالبين أرض بغداد" (٢).

ولا عبرة عند الباحث في الرواية الأدبية – بصحة الأحداث التاريخية – وإنما العبرة بالدلالات السياسية والعسكرية والعقيدية التي تعبر عن واقع التجربة الحاكمية وكذلك الرؤية الشعبية الوجدانية للشخصيات الحاكمية والأحداث التاريخية.

فالرؤية الشعبية للخيانة الحاكمية لا تتجزأ من عصر إلى عصر بل هي رؤية ثابتة لأنها جريمة كبرى تؤثر سلباً في حياة شعب بأكمله، ومن ثم فإن الشعب العربي لا يستطيع أن يتسامح أويغفر لمن ارتكبوا مثل هذه الجريمة، وهنا نقرأ في السيرة الشعبية موقف الشعب من هذه الخيانة إذ يقول الراوي في اللقاء الذي تم بين" هلاون" أوهولاكووابن العلقمي الوزير" الخائن":

" يا ويلك إذا كنت فعلت في من هم في دينك لأجل حمامة، فتهلكنا نحن الآخرين من أجل ذبابة وأنت إن لم يكن فيك خير في دينك وأهل ملتك، فكيف يكون لك خير فينا" (١).

ومن الطبيعي أن تحاكم الشعوب الخونة من الحكام وجدانياً ولكنها تفوض أعداءها في تحقيق ذلك في الواقع التاريخي للأحداث مثلما حدث للوزير العباسي ابن العلقمي في الرواية التي سردها القاص الشعبي عندما حاكم هولاكوعميله

ووبخه على فعلته الشائنة وهي خيانة دينه ووطنه، وأمر بقتله في مدخل عاصمة الخلافة على مرأى ومسمع من عيون الناس.

"....، ثم إن هلاون (هولاكو) صاح على رجاله وقال لهم خذوه وعلى باب المدينة (بغداد) اصلبوه" (٢).

والمهم هنا أن الخيال الشعبي في هذه السيرة توافق مع الرواية التاريخية في التمهيد بحادثة الخيانة إلى انتقال الأحداث إلى المسرح الرئيس في الشام ومصر حيث كانت نهاية الغزو التتري في عين جالوت سنة ٦٥٦ هـ /١٢٦٠ هـ على أيدى فرسان المماليك.

هكذا توافقت الرواية الأدبية الشعبية مع الرواية التاريخية الرسمية (١) في رسم صورة الخيانة لأحد كبار رجال الدولة وهوالوزير ابن العلقمي الذي نجح باقتدار في توظيف كل مظاهر الضعف السياسي والعسكري للدولة العباسية لمصلحة أولئك الغزاة القادمين من سهول الأستبس في الشرق الأسيوي لينشروا كل مظاهر الفناء والدمار في أنحاء العالم العربي في زمن خان التتار الأعظم" منكوخان" الذي أرسل حملتين في منتصف القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي إحداهما إلى الصين والأخرى إلى العراق تحت قيادة هولاكو(هلاون) حيث تمكن في إسقاط الخلافة العباسية في سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م.

لقد كانت الصدمة الشديدة في نفوس المسلمين إذ وجدوا أنفسهم لأول مرة بدون خليفة له رسالة سامية في حراسة الدين وسياسة الدنيا، ووجدوا العاصمة – بغداد – التي كانت بالأمس القريب نموذجاً حضارياً فريداً قد تحولت إلى أطلال تنوح ضحاياها من القتلى والجرحى والمكلومين، وتشهد على فساد وبشاعة جحافل التتار الذين دهسوا بسنابك خيولهم كل مظاهر الحضارة في بغداد حتى أنهم دمروا خزائن الكتب القيمة وأضرموا النار في المنشآت والمباني الجميلة التي تحكي ذكريات الزمن الذي كان حتى ُخيل للناس" أن الساعة آتية عن قريب".

"....، وخرب التتر الجوامع والمساجد والمشاهد، وسفكوا الدماء حتى جرت في الطرقات" [٢]"..... واستولى العدوعلى ذخائر الخلافة وخزائنها وأموالها وجواهرها،....".

وتبدوا الحقيقة المرة في مسلسل الخيانة واضحة في أعقاب سقوط بغداد وما صاحبه من أحداث دامية خلفت وراءها دعاية سوداء عن الجيش التتري الأسطوري الذي يطوي البلاد طياً ليفسد في الأرض ويسفك الدماء، إذ تحولت ممارسة الخيانة عند الذين يحكمون البلاد العربية من طورها" السري" على طورها " العلني" بعد أن سقطت الأقنعة الحاكمية الزائفة.

الخيانة الحاكمية العربية في الشام :

ويعد الملك الناصر يوسف حاكم دمشق نموذجاً للخيانة المعلنة زمن الغزوالمغولي للعراق والشام إذ سارع إبان الزحف التتري على الشام إلى إرسال سفارة برئاسة ابنه (العزيز) إلى هولاكوليقدم له فروض الطاعة والولاء ومؤكدا ذلك بما حمله من تحف وهدايا قيمة كي يعطيه الخان الأعظم الأمان لأبيه. بل إن الناصر يوسف لم يشبع بهذا القدر من مطالب الخيانة في ظل الظروف المأساوية التي يمر بها الشرق العربي فزاد عليه وطلب على لسان ابنه أن يعاونه هولاكوفي القضاء على المماليك في مصر.

ولنقرأ ما كتبه المقريزي في هذه الواقعة الشائنة :

"وفي (سنة ٦٥٦ هـ) أنفذ الملك الناصر صاحب دمشق أبنه الملك العزيز إلى هولاكو قدم إليه ما معه وسأل على لسان أبيه في نجدة ليأخذ مصر من المماليك" [١].

ولكن رد هولاكو جاء مخيباً لآمال الابن (العزيز) وأبيه (الناصر) إذ لم يعد قائد التتار في حاجة إلى مساعدة تلك الأنظمة العميلة بعد أن كشفت عن ضعفها وخضوعها،وعدم قدرتها على الحد الأدنى من المقاومة للزحف التتري، وبالتالي فإنه لم يعد يكفيه ما تقدمه له تلك الأنظمة من الأموال والهدايا بعد أن صارت الأراضي العربية بكل ما فيها من موارد وخيرات تحت سيطرته.

وفي هذا يكتب المقريزي نص كتاب هولاكوإلى الناصر يوسف :

" الذي يعلم به الملك الناصر صاحب حلب أنا نحن قد فتحنا بغداد بسيف الله تعالى وقتلنا فرسانها، وهدمنا بنيانها وأسرنا سكانها واستحضرنا خليفها وسألناه عن كلمات فكذب فواقعه الندم واستوجب منا العدم، وكان قد جمع ذخائر نفيسة، وكانت نفسه خسيسة، فجمع المال ولم يعبأ للرجال" [٢].

بل إن هولاكوطلب من الناصر يوسف الخضوع والإذعان دون قيد أوشرط وإلا سيكون جزاؤه وخيماً حتى وإن اتجه إلى مصر (كروان سراي) [١] بأمواله وحريمه مثلما فعل تجار الشام وغيرهم نجاة بأنفسهم من بطش التتار وأطماعهم الخبيثة.

" إذا وقفت على كتابي هذا فسارع برجالك وأموالك وفرسانك إلى طاعة سلطان الأرض شاهنشاه روي زمين تأمن شره وتنل خيره كما قال الله في كتابه العزيز" أن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى" ولا تعرف رسلنا عندك كما عرفت رسلنا من قبل ، فأمساك بمعروف أوتسريح بإحسان. وقد بلغنا أن تجار الشام وغيرهم انهزموا بأموالهم وحريمهم إلى كروان سراي فإن كانوا في الجبال نسفناها، وإن كانوا في الأرض خسفناها"

أين النجاة ولا مناص لهارب ولى البسيطان الثري والماء
ذلت لهيبتنا الأسود وأصبحت في قبضتي الأمراء والوزراء [٢]

ومن يقرأ سطور النصوص النثرية والشعرية الواردة في الرسائل التترية إلى حكام العرب يلاحظ أن ثمة طابوراً خامساً من الأدباء والشعراء العرب الذين جندهم التتار لإشاعة الهلع والرعب في نفوس هؤلاء الحكام وإضعاف الروح المعنوية في صفوف الجيوش والشعوب العربية مما يسهل المهام القتالية للقوات التترية، ويحقق لها أهدافها من الغزوبأقل الإمكانات والخسائر وهذا ما حدث بالفعل في أعقاب وصول رسائل هولاكوالمهينة إلى الناصر يوسف.

يقول المقريزي :

"فانزعج الملك الناصر وسير حريمه إلى الكرك، وخاف الناس بدمشق خوفاً كثيراً لعلمهم أن التتر قد قطعوا الفرات وسار كثير منهم إلى مصر" [٣].

دور مصر في مقاومة تداعيات الخيانة :

كانت أول خيانة حاكمية تصدت لها مصر في بلاد الشام هي أن الملك الناصر يوسف صاحب حلب ودمشق أرسل إلى هولاكو– بعد سقوط بغداد – يطلب منه تفويضاً بالأمان وكان السبب في إقدام الناصر على هذه الخطوة الانهزامية هوخوفه على ملكه ورهبته من مواجهة جحافل التتار الذين سبقت سمعتهم سنابك خيولهم إلى أراضي الشام، ورغم أن هذا الملك الرعديد كان يحمل في خزانته الخاصة وثيقة أمان فإنه لم يكن يثق في التزام التتار بالعهود والمواثيق لأنهم جبلوا على الخديعة والغدر ونقض العهود.

" وفيها (سنة ٦٤٨ هـ) وصل الملك الناصر من قبل القائد ملك التتار طمغا صورة أمان فصار يحملها في حياصته" [١].

وبعدها بعشر سنوات أرسل هولاكوإلى الملك الناصر رسالة يدعوه فيها إلى المسارعة في الدخول فى طاعته ضد المسلمين لكى"يأمن شره وينل خيره"[٢].

وقد أثارت هذه الرسالة الهلع في نفس الملك الناصر فتحول إلى مصر – التي كان يسعى إلى الاستيلاء عليها بمعاونة التتار – يستنجد بعسكرها ويلوذ بحماها.

" فانزعج الناصر وسير حريمه إلى الكرك (المغيث عمر) وخاف الناس بدمشق خوفاً كثيراً وسار كثير منهم إلى جهة مصر. وكان الوقت شتاءً فمات خلائق بالطريق، ونهب أكثرهم وبعث الناصر عندما بلغه توجه هولاكونحوالشام بالصاحب كمال الدين عمر بن العديم إلى مصر يستنجد بعسكرها" [٣].

وكان بمصر آنذاك الأمير قطز الذي سعى إلى تدبير أمور الحكم، فعزل الملك المنصور وتولى السلطنة بمصر[٤] وكتب إلى الملك الناصر بدمشق كتابا يترقق فيه

ويقسم بالأيمان أنه لا ينازعه في الملك ولا يقاومه وأنه نائب عنه بـــديار مـــصر، ومتى حل بها أقعده على الكرسي [٥] !

وربما حاول الملك الناصر يوسف أن يحافظ على ماء وجهه – بعد تلقيه رد هولاكو– فبعث برسالة حادة إلى القائد التتري، وفي نفس الوقت أرسل إلى قطز في مصر المحروسة يطلب منه العون ، وكان ذلك في شهر صفر ســـنة ٦٥٨ هـــــ / ١٢٦٠ م بعد أن استولى هولاكوعلى حلب ومنها اتجه إلى دمشق مخلفا وراءه آلاف القتلى والجرحى وما يزيد على مائة ألف أسير من الصبيان والنساء الـــشوام [١].

ومن المؤكد أن الناصر يوسف قد أصيب بحالة من الاضطراب النفسي ولـــم يعد يميز بين انتماءاته السياسية فسعى إلى لقاء هولاكوثم طلب العون مـــن الملـــك المغيث عمر صاحب إمارة الكرك ومن قبل استغاث بالملك المظفر قطـــز الـــذي" صادر كل ما وصل إليه من غلمان الملك الناصر وكتابه وأخذ أموالهم" فضلاً عن الجواهر والأموال الكثيرة لزوجة الناصر ونساء " الأمراء القيمرية" [٢] لكي يستعين بها في تجهيز الجيش المصري لملاقاة الزحف التتري القادم من الشام.

ويبدوأن هذه الحالة من الاضطراب النفسي قد انتقلت عدواها مـــن الملـــك الناصر يوسف إلى غيره من حكام الشام ، وانعكست هذه الحالة على أهـــالي تلـــك البلاد المحكومة لهؤلاء الخونة حتى وقعت فيهم" الجفلات" وكأن القيامة قامت بعـــد أن ظهر الفساد في البر والبحر بأيدي هؤلاء الحكام.

".... ، ولحق الملك الأشرف موسى بن المنصور صاحب حمص بهولاكـــو، وسار الملك المنصور ابن المظفر صاحب حماة إلى مصر بحريمه وأولاده، وجفل أهل حمص وحماة"[٣].

ولأن الجزاء من صنف العمل فإن أحد غلمان الناصر يوسف واسمه حسين الكردي سعى للقبض عليه وعلى ولده"العزيز" وعلى أخيه"غازي"وغيرهم" وبعـــث بهم إلى هولاكو" [٤] ليلقوا جزاء خيانتهم في حق الله والوطن.

وفي غضون تلك الأحداث كان هولاكويزحف بقواته إلى دمشق التي حكمها الناصر يوسف عشر سنوات ثم رحل عنها بعد القبض عليه تاركاً وراء ظهره مجموعة من النظراء الخونة وعلى رأسهم الأمير زين الدين الحافظي الذي وصفه الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري بالعمالة للتتار هوومن معه من أقرانه الذين مهدوا الطريق أمام هولاكووسلموه دمشق على طبق من ذهب ،بعد أن استسلم الناصر يوسف للخوف والاستخذاء.

"وعظم خوف الأمراء من هولاكوفأخذ الأمير زين الدين الحافظي يعظم شأن هولاكوويشير بأن لا يقاتل وأن يدارى بالدخول في طاعته فصاح به الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري وضربه وسبه وقال :" أنتم سبب هلاك المسلمين" (١).

وبينما كانت أحداث الخيانة في بلاد الشام تفوح برائحة كريهة أزكمت أنوف المعاصرين جاءت الأخبار بموت" منكوخان" خان التتار الأعظم ، وكان لابد من عودة هولاكوإلى بلاده للمشاركة في اختيار الخان الأعظم الجديد (٢)، تاركاً وراءه لقيادة الجيش القائد التتري كتبغا.

"وفيها (سنة ٦٥٨ هـ) رحل هولاكوعن حلب يريد الرجوع إلى الشرق (بلاد فارس) وجعل كتبغا بوين نائباً عنه بحلب، وبيدرا نائباً بدمشق، وأخذ معه من البحرية سبعة منهم سنقر الأشقر وسكز وبرامق وبكمش المسعودي" (٣).

هكذا تمكن التتار من غزوالعراق والشام دون أن يجدوا مقاومة تذكر من حكام البلاد التي دخلوها، بل على العكس فإنهم وجدوا كافة مظاهر الاستسلام والخضوع والمهادنة من أمثال الناصر والذين لحقوا به من الخلفاء حتى الخليفة المستعصم والوزير ابن العلقمى والملك الناصر يوسف والأمير زين الدين الحافظي والملك الأشرف موسى ناهيك عن أهل الحكم من القضاة من أمثال محي الدين ابن الزكي وكمال الدين عمر التفليسي وغير هؤلاء من الخونة الذين أعتمد عليهم التتار في اكتساح الأراضي العربية وحيث سارت بلدان العراق والشام مرتعاً خصباً لهؤلاء

العملاء لإفراز سموم الفرقة والتشرذم بين الشعوب العربية كي لا تقوى على مواجهة التحديات والدفاع عن نفسها ضد الأخطار المحدقة بها من كل جانب.

بل إن السلطان سيف الدين قطز (ت ٦٥٨هـ/١٢٦٠م) [١] دعا حكام الشام إلى نبذ الفرقة والخلاف وعدم التعامل مع التتار مهما كانت الظروف والملابسات لأن في ذلك إضعاف لوحدة الصف العربي، وأن العراق إذا كانت سقطت بسبب ضعف المسلمين وخيانة بعض الحكام فان الأمر يستلزم وحدة الشام ومصر لرد العدوان، وتحرير العراق مرة أخرى من نير التتار.

وبرغم الصدق الواضح في دعوة قطز لحكام الشام، فان بعض هؤلاء الحكام لم يستجيبوا لهذه الدعوة وأصروا على ما هم فيه من خيانة، وكان آخر هؤلاء الملك الأشرف صاحب حمص الذى كافأه التتار بعد عودته من عند هولاكوبتعيينه نائبا للسلطنة بدمشق وسائر الشام.

وفى هذا يقول أبوالفدا:"ولما بلغ كتبغا وهونائب هولاكوعلى الشام ومقدم التتر سير العساكر الإسلامية إليه صحبة الملك المظفر قطز جمع من في الشام من التتر وسار إلى لقاء المسلمين، وكان الملك السعيد صاحب الصليبية ابن الملك العزيز ابن الملك العادل بن أيوب صحبة كتبغا،.....، وكان أيضا في صحبة التتر الملك الأشرف موسى صاحب حمص"[٢].

لقد كشف قطز منذ اللحظة الأولى في قيادته للجيش العربي الإسلامى عن رؤيته السياسية والعسكرية الثاقبة إذ سعى إلى لم شمل حكام العرب في بلاد الشام وتوحيد الجهود الحربية في جبهتي الشمال والجنوب من خلال مراسلاته التي أسفرت عن تجمع الفرق العسكرية الشامية وتقدمها نحوالقاهرة لتكون تحت القيادة المصرية على أهبة الاستعداد لمهاجمة جيش التتار الذي صار قاب قوسين أوأدنى من الحدود المصرية.

وفي هذه الأثناء كان الأمير ركن الدين بيبرس في الشام يتابع عن كثب أساليب التتار في القتال وأساليب الخونة والعملاء في مدهم بالأخبار والمعلومات

من أمثال الملك الصالح إسماعيل الذي كان على اتصال سري شبه مستمر مع التتار والأمير زين الدين الحافظي الذي كان أخطر عميل أحادي للتتار في الشام ليس فقط لأنه كان مصدراً رئيسياً للمعلومات بل كان أيضاً مصدراً رئيسياً لنشر الدعاية السوداء في صفوف القوات العسكرية الشامية والتي تدعوهم إلى رفع الرايات البيضاء للأعداء وتلبية كافة مطالبهم دون قيد أوشرط.

ويصور لنا أحد المؤرخين هذا المشهد الفريد في الخيانة بقوله :

" وسار هولاكو[١] إلى دمشق بعد أن أخذ حلب بستة عشر يوماً فقام الأمير زين الدين سليمان بن المؤيد بن عامر المقرباني المعروف بالدين الحافظي وأغلق أبواب دمشق وجمع ما بقى بها وقرر معهم تسليم المدينة إلى هولاكوفتسلمها فخر الدين المردغاني ".

" فلما كانت ليلة الاثنين تاسع عشر صفر (٦٥٨ هـ) وصل رسل هولاكوصحبة القاضي محي الدين بن الزكي وكان قد توجه من دمشق إلى هولاكوبحلب فخلع عليه وولاه قضاء الشام وسيره إلى دمشق ومعه الوالي. فسكن الناس وجمعوا من الغد بالجامع فلبس ابن الزكي خلعة هولاكووجمع الفقهاء وغيرهم وقرأ عليهم تقليد هولاكو" [٢].

وثمة نص ورد في العديد من المصادر العربية وهورسالة موجهة من هولاكو(هلاوون) إلى الملك المظفر قطز" صاحب مصر وأعمالها وسائر أمراءها وجندها وكتابها وعمالها وباديها وحاضرها وأكابرها وأصاغرها،...." [١] (رواية ابن أيبك).

أوهورسالة من" ملك الملوك شرقاً وغرباً القائد الأعظم (إلى) الملك المظفر (قطز) الذي هومن جنس المماليك الذين هربوا من سيوفنا (سيوف التتار) إلى هذا الإقليم (مصر)...." [٢] (رواية المقريزي).

وهذا النص يوحي في مضمونه بحالة الغرور والتيه والغطرسة التي بلغت أوجها في نفوس التتار بعد سلسلة الانتصارات المذهلة والمفزعة

لكل المعاصرين بحيث جاءت كلمات الرسالة بكل ما فيها من غلظة وفجاجة تعبيراً حقيقياً عما أحدثه هؤلاء التتار من أعمال تخريب وتدمير وقتل وتشريد في المدن العربية بالعراق والشام بمساعدة الخونة والعملاء الذين أمدوهم بأدق المعلومات عن القوات العربية الإسلامية وأسلحتها وقدراتها القتالية فضلاً عن المعلومات السياسية المتصلة بشئون الحكم والإدارة ناهيك عن دور هؤلاء الخونة في إضعاف الروح المعنوية وإشاعة الرعب في نفوس العسكريين المدنيين قبل نشوب المعارك حتى صار مجرد الاستماع لأخبار قدومهم على أي بلد عربي نذير شؤم لكل الشعوب العربية إذ أنهم (التتار) قوم لا ينهزمون وجيش لا يقهر.

ولكن مصر صاحبة الرسالة الأبدية في الدفاع عن الأمة العربية والإسلامية ضربت المثل في فترة وجيزة من عمر الزمن لم تزد عن عشر سنوات (١٢٥٠ – ١٢٦٠ م) على أن مصير العرب جميعاً مرتبط بمصير مصر وأن الجيش المصري الذي أحبط كل مخططات ومحاولات الصليبيين في سيادة الشرق العربي وكانت أخر هذه المحاولات في سنة ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠م تحت قيادة الملك الصليبي لويس التاسع الذي تصور بأنه بتحالفه مع جحافل التتار الغازية للعراق والشام يستطيع أن يغزومصر ويعيد أمجاد الصليبيين في حكم الشرق العربي الإسلامي.

وجاء رد قطز على رسالة هولاكومخيباً لأمال الجيش التتري وآمال عملاءه من الملوك والأمراء والأعيان في بلاد الشام الذين تصوروا وهم في سكرة التيه أن النصر الحاسم آت وأن ثمار الخيانة قد حان قطافها وأن خريطة العالم العربي سوف تتعدل وفقا لأطماعهم الدنيوية والتي من أجلها باعوا الدين والوطن وهانت عليهم شعوبهم بعد أن هانت عليهم أنفسهم وصدق فيهم قول الشاعر :

ومن يهن يسهل الهوان عليه وما الجرح بميت إيلام

لقد كان رد قطز رسالة لكل الخونة والعملاء في أنحاء العالم العربي بأن مصر فيها خير أجناد الأرض، وأنها في رباط إلى يوم الدين وأن صحوة الجهاد

فيها لا تؤثر فيها وسائل التهديد والوعيد من جانب الأعداء ولا تفت في عضدها أساليب التجسس والخيانة من جانب العملاء.

" وفيه أحضر قطز رسل التتار وكانوا أربعة : فوسط واحد بسوق الخيل تحت قلعة الجبل ووسط أخر بظاهر باب زويله ووسط الثالث ظاهر باب النصر ووسط الرابع بالريدانية وعلقت رؤوسهم على باب زويله، وهذه الرؤوس أول رؤوس علقت على باب زويله من التتار وأبقى الملك المظفر على صبي من الرسل وجعله من جملة مماليكه. ونودي في القاهرة ومصر وسائر إقليم مصر بالخروج إلى الجهاد في سبيل الله ونصرة لدين رسول الله صلى الله عليه وسلم" (١).

وصارت مصر مركزا لتجمع كافة المقاتلين من مصر والشام تحت قيادة قطز، وكان الجميع في انتظار تحديد ساعة الصفر وتحولت مصر إلى ميدان جهاد تتنافس فيه كل القوى الشعبية في العمل والإنتاج والتدريب وبذل المال حتى صارت الروح المعنوية للجنود في عنان السماء، بحيث لم يوجد على أرضها موطأ قدم لخائن أوعميل.

وقراءة متأنية لنصوص الرسائل (١) الواردة من التتار وممهورة بتوقيع هولاكو– قائد التتار في تلك الفترة – تؤدي بنا إلى الملاحظات التالية :

الملاحظة الأولى :

أن مضمون هذه الرسائل يكاد يكون دليلاً على خيانة فجة من بعض علماء الدين الذين صاغوا النصوص بأسلوب لغوي بديع لا يستطيع أن يأتي به كثير من ناطقي العربية أنفسهم، بما تشتمل عليه هذه النصوص من مفردات لغوية متقنة ومحسنات بديعية رائعة فضلاً عما اشتملت عليه من آيات قرآنية وأقوال مأثورة ، وأبيات شعرية منظومة مما يؤكد وجود فئة من أرباب القلم (أهل العمائم) في الطابور الخامس سخرت علمها في خيانة الدين والوطن.

الملاحظة الثانية :

أن أرباب الخيانة من الحكام، والأمراء ،والوزراء كشفوا من خلال اتصالاتهم السرية وسفاراتهم المشبوهة عن حالة العجز والاستخذاء التي عليها الأنظمة الحاكمة في العراق وبلاد الشام مما شجع التتار على التعامل مع تلك الحكومات بنوع من الاستهانة والاستهزاء بتلك الأنظمة السياسية الهشة التي كانت عندهم أشبه بخيوط العنكبوت ومن ثم صيغت هذه الرسائل لكي يقرأها هؤلاء الحكام بأيدي مرتعشة، وقلوب وجلة، وعيون جاحظة، وشفاه متدلية من أثر الخنوع.

الملاحظة الثالثة :

أن التتار كانوا على علم بما حققه فرسان المماليك في معركة المنصورة (٦٤٨ هـ / ١٢٥٠م) من انتصار مذهل على الصليبيين ومن ثم استشعروا صعوبة المواجهة معهم، فلجأوا إلى الحرب النفسية والتي من بينها هذه الرسالة التي أرسلها هولاكوواشتملت على عبارات أكثر قسوة وفظاظة مما اشتملت على رسائلهم السابقة لحكام العراق وبلاد الشام مما يعكس حالة الجبن والذعر لدى التتار والتي حاولوا مداراتها بتلك الرسالة الفجة.

ولم تزل كتب الأدب الشعبي تعيش بين الناس في أنحاء العالم العربي تروي لهم قصة الخيانة الحاكمية التي كانت سبباً رئيسيا فيما هم فيه من ذل وهوان وإن جاءت الروايات في إطار خيالي ساخر إلا أنها اتفقت في مضمونها مع ما نقرأه بين السطور في روايات المؤرخين وهوما يمكن أن نطلق عليه" الجانب المسكوت عنه" وتتناوله أقلام المؤرخين بنوع من الاستحياء المشوب بالحذر، بينما تتناوله الروايات الأدبية بنوع من الرمزية بحيث تترك العنان لخيال القارئ وتصوراته كي يفهم ما خلف الرمزيات من حقائق تاريخية.

فالخيانة التي مارسها الوزير العباسي ابن العلقمي أرجعت السيرة الشعبية سببها المباشر إلى نشوب خلاف بين ابن الخليفة وابن الوزير العلقمي بسبب لعب الحمام وتطييره فأمر الخليفة بذبح الحمام الذي كان في حوزة ابن الوزير (العلقمي) مما أغضب الوزير" الخائن" فاتصل بالتتار يدعوهم إلى غزوبغداد وإسقاط الخلافة [١].

والمصادر التاريخية أشارت إلى انغماس خلفاء بني العباس – زمن ظهور التتار في الشرق الإسلامي – في أمور اللهووالتسلية ومن بينها" رمي البندق والطيور" وتشير في نفس الوقت إلى مداراتهم للتتار ومكاتباتهم وإطماعهم في بلاد المسلمين مثلما كان الحال في زمن الخليفة الناصر لدين الله أبوالعباس (ت ٦٢٢ هـ) وحتى زمن الخليفة المستعصم بالله عبد الله (ت ٦٥٦ هـ) آخر الخلفاء العباسيين في بغداد وكان" في لهوه لا يعبأ بشيء" وهوالذي" أتلف عساكر بغداد لنهمه في جمع المال فدهى الإسلام وأهله بلينه وإسناده الأمر إلى وزيره ابن العلقمي فإنه قطع أرزاق الأجناد واستجر التتار حتى كان ما كان" [٢].

وهكذا يرى"القاص الشعبي" الخليفة العربي" أمير المساخر" [٣] الذي يتصابى في سلوكه وأفعاله ووسائل إشباع نزواته.

ويراه"المؤرخ الرسمي"خليفة بلا صلاحيات وليس له من الخلافة" سوى الاسم" وليس له أمر ولا نهي ولا نفوذ كلمة [٤].

النصر على التتار ونهاية الخونة :

وقد سبقت الإشارة إلى رحيل هولاكوإلى قراقوم بسبب وفاة منكوخان وانتخاب خاقان جديد بدلاً منه (قوبيلاي) مما استدعى تعيين قائد عسكري أشتهر بشجاعته وقسوته وهوكتبغا الذي دخل بقواته غزة بفلسطين التي شاءت الأقدار أن تكون مرة أخرى ميدان تحرير الشرق العربي / الإسلامي من التتار الوثنيين بعد أن كانت ميدان التحرير من نير الفرنجة الصليبيين في زمن صلاح الدين الأيوبي (ت ٥٨٩ هـ / ١١٩٣ م).

وكان قطز حريصاً في مواجهته مع التتار في عين جالوت (المنطقة الواقعة بين نابلس و(بيسان) [١] على تحييد القوات الصليبية في عكا كي لا تكون شوكة في ظهره أثناء القتال فضلاً عن أن هذا الحياد سيؤمن له خطوط التموين والمواصلات.

ولسنا هنا بصدد الحديث عن تفاصيل معركة عين جالوت وهزيمة التتار في يوم الجمعة ٢٥ رمضان سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م والذي أسهبت المصادر

المعاصرة[٢] في الحديث عنها باعتبارها معركة حياة أوموت بالنسبة لكل المسلمين والعرب ولكن الحديث هنا يتحدد في إطار نتائج هذه المعركة على الخونة والعملاء الذين باعوا الدين والوطن لأعداء الإسلام والمسلمين وسائر البشر مقابل أن يظلوا على ما هم فيه من جاه وسلطان ورغد العيش.

فيذكر المقريزي ما نصه :

" وكان هولاكو(في بلاد فارس) لما قدم عليه الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن الملك العزيز صاحب الشام أكرمه وأجرى له راتباً وأختص به وأجلسه على كرسي قريباً منه وشرب معه حتى كتب له فرساناً وقلده مملكتي الشام ومصر، وأخلع عليه وأعطاه خيولاً كثيرة وأموالاً وسيره إلى جهة الشام فأمر هولاكولما ورد عليه خبر الكسرة (هزيمة التتار) برده فأحضر وقتل بجبال سلماس (في أذربيجان) في ثامن عشر شوال وقتل معه أخوه الملك الظاهر والملك الصالح ابن شيركوه وعدد من أولاد الملوك" [٣].

وعن نتائج الخيانة الحاكمية :

يقول أبوالفدا عند ذكره لهزيمة التتار وقتل كتبغا :

" وفي هذه السنة أعني سنة ثمان وخمسون وستمائة، كانت هزيمة التتر يوم الجمعة الخامس والعشرين من شهر رمضان على عين جالوت وكان من حديثها أنه لما اجتمعت العساكر المصرية بمصر عزم الملك المظفر قطز مملوك المعز أيبك على الخروج إلى الشام لقتال التتار وسار من مصر بالعساكر المصرية وبصحبته الملك المنصور محمد صاحب حماة وأخوه الملك الأفضل على، وكان مسيره من الديار المصرية في أوائل رمضان من هذه السنة ولما بلغ كتبغا وهونائب هولاكوعلى الشام ومقدم التتر سير العساكر الإسلامية إليه صحبة الملك المظفر قطز جمع من في الشام من التتر وسار إلى لقاء المسلمين وكان الملك السعيد صاحب الصليبية ابن الملك العزيز ابن الملك العادل بن أيوب صحبة كتبغا، وتقاربا الجمعان في الغور والتقوا يوم الجمعة المذكور فانهزمت التتر هزيمة قبيحة وأخذته سيوف المسلمين وقتل مقدمهم كتبغا.

وكان أيضا في صحبة التتر الملك الأشـرف موسـى صـاحب حمـص ومضافاتها،...، وأما الملك السعيد صاحب الصليبية فإنـه أمـسك اسـيراً وأحضر بين يدي الملك المظفر قطز فأمر به فضربت عنقـه،....، وأتـم الملـك المظفر السير بالعساكر وصحبته الملك المنصور صاحب حماة حتى دخل دمـشق وتضاعف شكر المسلمين لله تعالى على هذا النصر العظيم فإن القلوب كانـت قـد يئست من النصرة على التتر لاستيلائهم على معظم بلاد الإسلام ولأنهم ما قصدوا إقليماً إلا فتحوه ولا عسكر إلا هزموه فابتهجت الرعايا بالنصرة علـيهم وبقـدوم الملك المظفر قطز إلى الشام وفي يوم دخوله دمشق أمر بشنق جماعة من المنتسبين إلى التتار وكان من جملتهم حسين الكردي طبردار الملك الناصر يوسف وهوالذي أوقع الملك الناصر في أيدي التتر" (١)

الملاحق والخرائط

ملحق (١)

نص كتاب هولاكو إلى صاحب مصر

(رواية ابن أيبك الدوادار) *

" بسم اله السماء الواجب حقه ، الذي ملكنا أرضه وسلطنا على خلقه ، الذي يعلم به الملك المظفر صاحب مصر وأعمالها وسائر أمرائها وجندها وكتابها وعمالها، وباديها وحاضرها،وأكابرها وأصاغرها، إنا جند الله في أرضه، خلقنا من سخطه، وسلطنا على من حل به غيظه، فلكم في جميع الأمصار معتبر، وعن عزمنا مزدجر، فاتعظوا بغيركم، وسلموا إلينا أمركم قبل أن ينكشف الغطاء، ويعود عليكم الخطأ، فنحن ما نرحم من بكى، ولا نرق لمن شكى، فتحنا البلاد، وطهرنا الأرض من الفساد، فعليكم بالهرب وعلينا بالطلب، فأي أرض تأويكم وأي بلاد تحميكم وأي ذلك ترى ولنا الماء والثرى، فما لكم من سيوفنا خلاص ولا من أيدينا مناص ، فخيولنا سوابق وسيوفنا صواعق ورماحنا خوارق وسهامنا لواحق وقلوبنا كالجبال وعديدنا كالرمال. فالحصون لدينا لا تمنع والجيوش لقتالنا لا تنفع، ودعاكم علينا لا يسمع، لأنكم أكلتم الحرام وتعاظمتم عن رد السلام، وخنتم الأيمان وفشا فيكم العقوق والعصيان، فابشروا بالمذلة والهوان (فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تعملون)،

(وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون). وقد ثبت أن نحن الكفرة وأنتم الفجرة، وقد سلطنا عليكم من بيده الأمور المدبرة، والأحكام المقدرة فكثيركم عندنا قليل وعزيزكم لدينا ذليل وبغير المذلة ما لدنياكم علينا سبيل، فلا تطيلوا الخطاب وأسرعوا رد الجواب قبل أن تضرم الحرب نارها وتوري شرارها فلا تجدون منا

* ابن أيبك الدوادار : كنز الدرر و جامع الغرر، جـ ٨ ص ٤٧ – ٤٨

جاهاً ولا عزاً ، ولا كتاباً ولا حرزاً إذ أزتكم رماحنا أزاً . وتدهون منا بـــأعظم داهية وتصبح بلادكم منكم خالية، وعلى عروشها خاوية فقد أنـــصفناكم إذ أرســـلنا إليكم ومننا برسلنا عليكم، ثم كتب :

ألا قل لمصرها هلاوون قد أتى بحد سيوف تـــمتـــضي وبـــواتر

يصير عزيز الـــقوم فيهـــــا أذلة ونلحق أطفالاً لهم بالأكابر

ملحق (٢)
نص كتاب هولاكو إلى صاحب مصر
(رواية المقريزي) *

وفيما وصلت رسل هولاكو إلى مصر بكتاب نصه :

" من ملك الملوك شرقا وغرباً ، الخان الأعظم باسمك اللهم باسط الأرض ورافع السماء، يعلم الملك المظفر قطز الذي هم من جنس المماليك الذين هربوا من سيوفنا إلى هذا الإقليم، يتنعمون بأنعامه، ويقتلون من كان بسلطانه بعد ذلك. يعلم الملك المظفر قطز وسائر أمراء دولته وأهل مملكته بالديار المصرية وما حولها من الأعمال أنا نحن جند الله في أرضه ، خلقنا من سخطه وسلطنا على من حل به غضبه فلكم بجميع البلاد معتبر وعن عزمنا مزدجر فاتعظوا بغيركم واسلموا إلينا أمركم قبل أن ينكشف الغطاء فتندموا ويعود عليكم الخطأ، فنحن ما نرحم من بكى، ولا نرق لمن شكى، وقد سمعتم أننا قد فتحنا البلاد، وطهرنا الأرض من الفساد، فعليكم بالهرب وعلينا بالطلب، فأي أرض تأويكم، وأي طريق ينجيكم، وأي بلاد تحميكم ؟ فما من سيوفنا خلاص ولا من أيدينا مناص ، فخيولنا سوابق وسهامنا خوارق وسيوفنا صواعق

وقلوبنا كالجبال وعديدنا كالرمال. فالحصون لدينا لا تمنع والعساكر لقتالنا لا تنفع، ودعاؤكم علينا لا يسمع، فإنكم أكلتم الحرام ولا تعفون عند الكلام، وخنتم العهود والأيمان وفشا فيكم العقوق والعصيان، فابشروا بالمذلة والهوان (فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وما كنتم تفسقون)، (وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون).

* المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ، جـ ١ ق ٢ ص ٤٢٧ – ٤٢٩ .

فمن طلب حربنا ندم ومن قصد أماننا سلم فإن أنتم لشرطنا ولأمرنـــا أطعـــتم فلكم ما لنا وعليكم ما علينا وإن خالفتم هلكتم فلا تهلكوا نفوسكم بأيديكم فقد حذر من أنذر وقد ثبت عندكم أن نحن الكفرة، وقد ثبت عندنا انكم الفجرة، وقد سلطنا عليكم من له الأمور المقدرة والأحكام المدبرة فكثيركم عندنا قليل وعزيزكم عندنا زليـــل وبغير الأهنة ما لملوككم عندنا سبيل فلا تطيلوا الخطاب وأسرعوا برد الجواب قبل أن تضمر الحرب نارها وترمي نحوكم شرارها فلا تجدون منا جاها ولا عـــزا ولا كافيا حرازاً وتدهون منا بأعظم داهية وتصبح بلادكم منكم خالية فقد أنـــصفناكم إذ أرسلناكم، وأيقظناكم إذ حذرناكم، فما بقي لنا مقصد سواكم، والسلام لنا وعلـــيكم، وعلى من أطاع الهدى وخشي عواقب الردى وأطاع الملك الأعلى.

ألا قل لمصرها هلاوون قد أتى بحد سيوف تـــمتـــضي وبـــواتر

يصير عزيز الـــقوم فيهـــــا أذلة ونلحق أطفالاً لهم بالأكابر

ملحق (٣)

هزيمة التتار وقتل الخونة في بلاد الشام

وفي هذه السنة : أعني سنة ثمان وخمسون وستمائة :

كانت هزيمة التتر في يوم الجمعة الخامس والعشرين من شهر رمضان على عين جالوت وكان من حديثها انه لما اجتمعت العساكر الإسلامية بمصر عزم الملك المظفر قطز مملوك المعز أيبك على الخروج إلى الشام لقتال التتر وسار من مصر بالعساكر الإسلامية وصحبته الملك المنصور محمد صاحب حماة وأخوه الملك الأفضل على وكان مسيره من الديار المصرية في أوائل رمضان من هذه السنة ولما بلغ كتبغا وهونائب هولاكوعلى الشام ومقدم التتر سير العساكر الإسلامية إليه صحبة الملك المظفر قطز جمع من في الشام من التتر وسار إلى لقاء المسلمين وكان الملك السعيد صاحب الصليبية ابن الملك العزيز ابن الملك العادل ابن أيوب صحبة كتبغا وتقرب الجمعان في الغور والتقوا يوم الجمعة المذكور فانهزمت التتر هزيمة قبيحة وأخذتهم سيوف المسلمين وقتل مقدمهم كتبغا واستوسر ابنهم وتعلق من سلم من التتر برؤوس الجبال فتتبعهم المسلمون فأفنوهم وهرب من سلم منهم إلى الشرق وجرد قطز ركن الدين بيبرس البندقداري في أثرهم فتبعهم المسلمون إلى أطراف البلاد الشرقية وكان أيضاً في صحبة التتر الملك الأشرف موسى صاحب حمص ففارقهم وطلب الأمان من المظفر قطز فأمنه ووصل إليه فأكرمه وأقره على ما بيده وهوحمص ومضافاتها وأما الملك السعيد صاحب الصليبية فإنه أمسك أسيراً وأحضر بين يدي الملك المظفر قطز فأمر به فضربت عنقه بسبب ما كان المذكور قد اعتمده من السفك والفسق ولما انقضى أمر المصاف أحسن المظفر قطز إلى الملك المنصور صاحب حماة وأقره على حماة وبارين وأعاد إليه المعرة وكانت في أيدي الحلبيين من حين استولوا عليها في سنة خمس وثلاثين وستمائة وأخذ سلمية منه وأعطاها أمير العرب وأتم الملك المظفر السير بالعساكر وصحبته الملك المنصور صاحب حماة حتى دخل دمشق وتضاعف شكر المسلمين لله تعالى على هذا النصر العظيم فإن القلوب كانت قد يئست من النصرة على التتر

لاستيلائهم على معظم بلاد الإسلام ولأنهم ما قصدوا إقليماً إلا فتحوه ولا عسكر إلا هزموه فابتهجت الرعايا بالنصرة عليهم وبقدوم الملك المظفر قطز إلى الشام وفي يوم دخوله دمشق أمر بشنق جماعة من المنتسبين إلى التتر فشنقوا وكان من جملتهم حسين الكردي طبردار الملك الناصر يوسف وهوالذي أوقع الملك الناصر في أيدي التتر وفي هذه النصرة وقدوم قطز إلى الشام يقول بعض الشعراء :

هلك الكفر في الشام جميعا ... واستنجد الإسلام بعدد حوضه
بالمليك المظفر الملك الأر ... وع سيف الإسلام عند نهوضه
ملك جاءنا بعزم وحزم ... فاعتززنا بسمره وببيضه
أوجب الله شكر ذلك علينا ... دائماً مثل واجبات فروضه

ثم أعطى الملك المظفر قطز صاحب حماة الملك المنصور الدستورفقدم الملك المنصور قدامه مملوكه ونائبه مبارز الدين أقوش المنصوري إلى حماة ثم سار الملك المنصور وأخوه الملك الأفضل ووصلا إلى حماة ولما استقر الملك المنصور بحماة قبض على جماعة كانوا من التتر

واعتقلهم وهنأ الشيخ شرف الدين شيخ الشيوخ الملك المنصور بهذا النصر العظيم وبعود المعرة بقصيدة منها :

زغت العدى فضمنت ثل عروشه ... ولقيتها فأخذت ثل جيوشها
نازلت أملاك التتر فأنزلت ... عن فحلها قسراً وعن أكديشها
فغدا سيفك في رقاب كماتها ... حصد المناجل في يبيس حشيشها
فقت الملوك يبذل ما تحويه إذا ... ختمت خزاينها على منقوشها

ومنها :

وطويت عن مصر فسيح مراحل ... مابين بركة زيزاء وبين عريشها
حتى حفظت على العباد بلادها ... من رومها الأقصى إلى أحبوشها
فرشت حماة لوطء نعلك خذها ... فوطئت عين الشمس من مفروشها
وضربت سكتها التي أخلصتها ... عما يشوب النقد من مغشوشها
وكذا المعرة إذ ملكت قيادها ... دهشت سروراً سار في مدهوشها
طربت برجعتها إليك كأنما ... سكرت بخمره حاسها أوحيشها

لازلـــت تنعش بالنوال فقيرهـــا وتنال أقصى الأجر من منعوشها

وكان خسروا شاه قد سافر من حماة إلى جهة الشرق لما بلغه كسرة التتـــر ثـــم جهز الملك المظفر قطز عسكراً إلى حلب لحفظها ورتب أيضا شمس الدين أقوش البرلي العزيزي أميراً بالسواحل وغزة ورتب معه جماعة من العزيزية وكـــان البرلي المذكور من مماليك الملك العزيز محمد صاحب حلب وســـار فـــي جملـــة العزيزية مع ولده الملك الناصر يوسف إلى قتال المصريين وخامر البرلي وجماعة من العزيزية على ابن أستاذهم الملك الناصر وصاروا مع أيبك التركماني صاحب مصر ثم أنهم قصدوا اغتيال المعز أيبك التركماني المذكور وعلم بهم فقبض علـــى بعضهم وهرب بعضهم وكان البرلي المذكور من جملة من سلم وهرب إلى الـــشام فلما وصل إلى الملك الناصر أعتقله بقلعة عجلون فلما توجه الملك الناصر بالعساكر إلى الغور مندفعاً من بين يدي التتر أخرج البرلي من حبس عجلون وطيب خاطره فلما هرب الملك الناصر من قطيه دخل شمس الدين أقوش البرلي المـــذكور مـــع العساكر إلى مصر فأحسن إليه الملك المظفر قطز وولاه الآن السواحل وغزة فلمـــا استقر بدمشق على ما ذكرناه وكان مقر البرلي لما تولى هذه الأعمال بنابلس تـــارة وبيت جبرين أخرى ثم إن الملك المظفر قطز فوض نيابة السلطنة بدمـــشق إلـــى الأمير علم الدين سنجر الحلبي وهوالذي كان أتابكا لعلي أبن المعز أيبك وفـــوض نيابة السلطنة بحلب الملك السعيد بن بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل وكان المذكور قد وصل إلى الملك الناصر يوسف صاحب الشام ودخل مع العساكر إلـــى مـــصر وصار مع المظفر قطز ففوض إليه نيابةالسلطنة بحلب وكان سببه أن أخاه الملـــك الصالح أبن لؤلؤ قد صار صاحب الموصل بعد أبيه فولاة حلـــب ليكاتبـــه أخـــوه بأخبار التتر ولما استقر السعيد المذكور في نيابة حلب سار سيرة رديه وكان دأبـــه التحيل على أخذ مال الرعية *.

ملحق (٤)

* أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر جـــ ٣ ص ٢٤٥ – ٢٤٧.

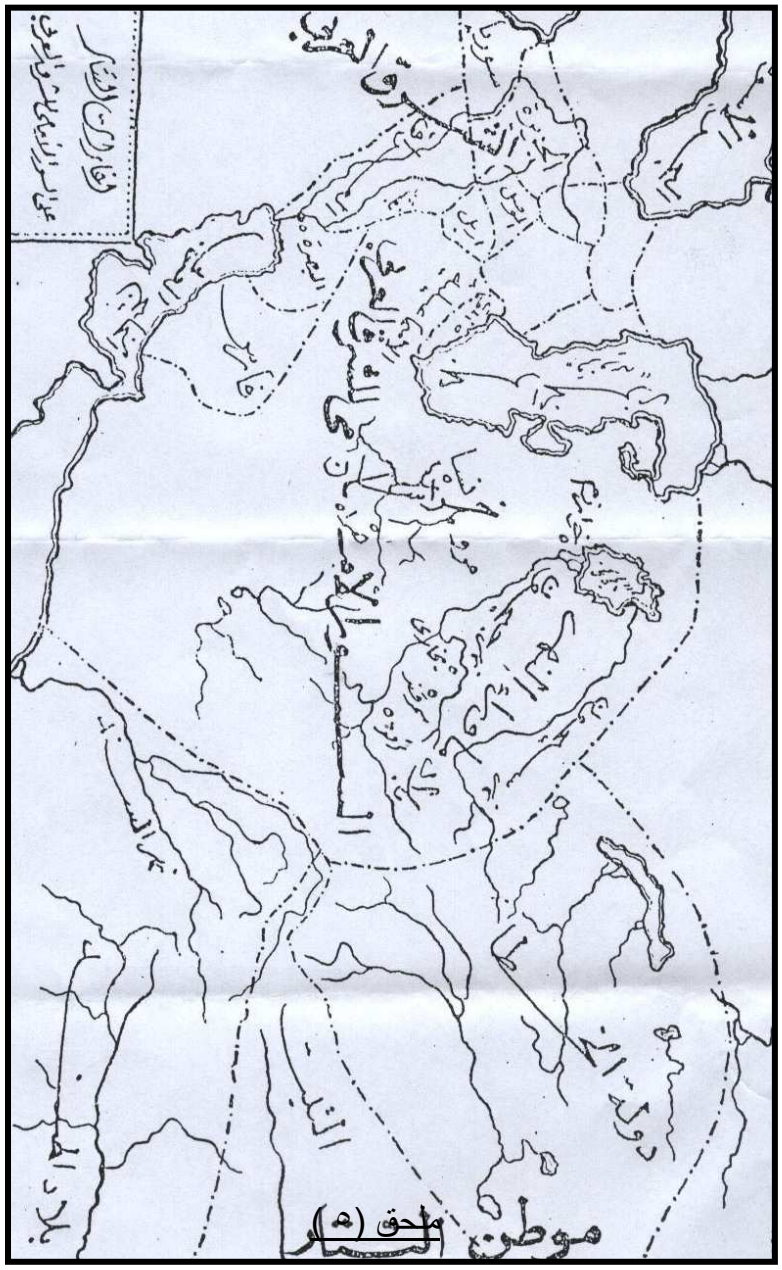

ملحق (٥)

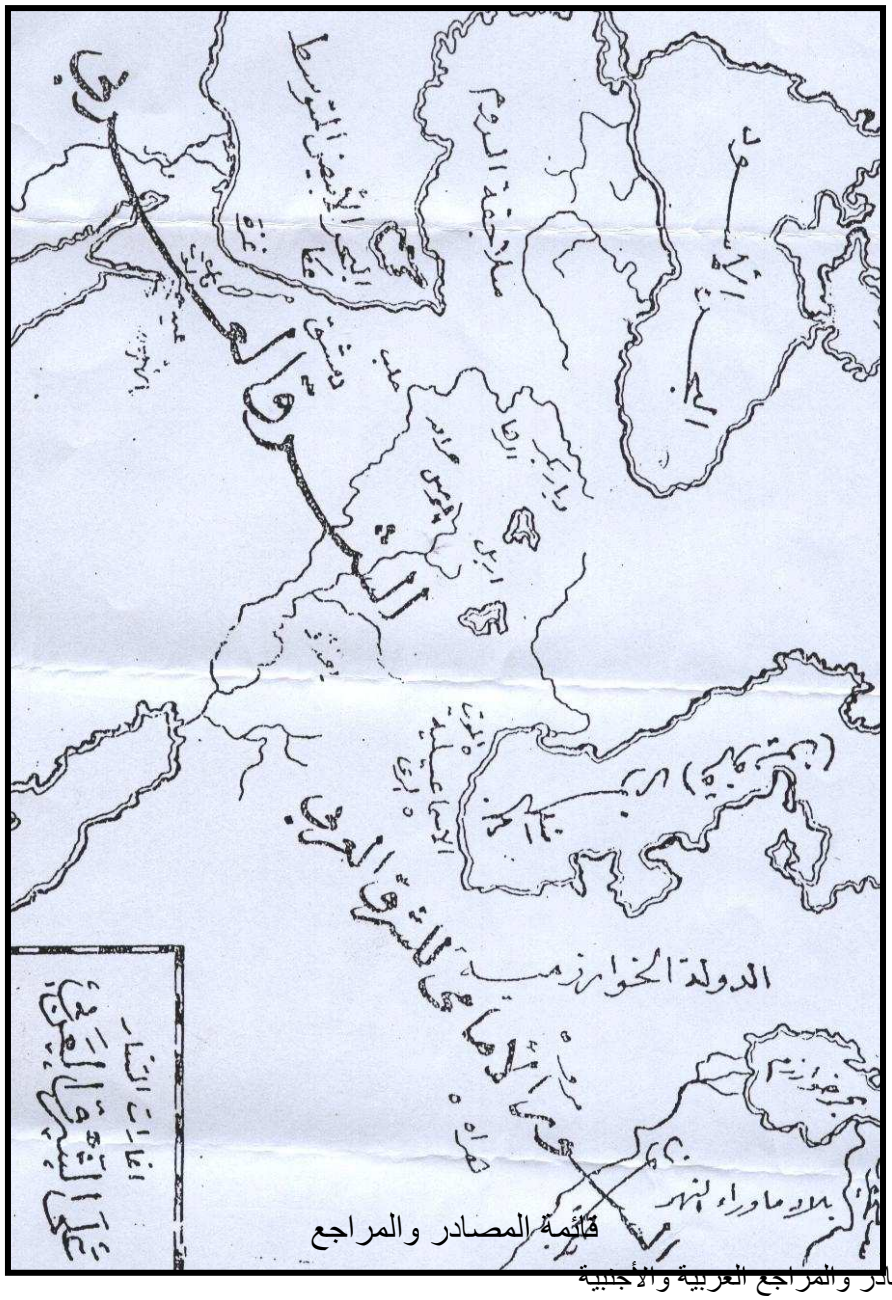

قائمة المصادر والمراجع

المصادر والمراجع العربية والأجنبية

*القرآن الكريم :

أولاً : المصادر :

ابن الأثير (محمد بن محمد بن عبد الكريم ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣١ م)

– الكامل في التاريخ" الجزء التاسع"(دار الفكر ، بيروت ، د. ت)

ابن أيبك الدوادار (أبوبكر عبد الله ت غير معروف)

- كنز الدرر وجامع الغرر" الجزء الثامن بعنوان الدرة الذكية في أخبار الدولة التركية"نشر هانسن روبرت – القاهرة

ابن بطوطة (أبوعبد الله محمد بن إبراهيم ،ت ٧٧٩ هـ /١٣٧٧ م)

– الرحلة ،تحقيق طلال حرب (دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤٠٧ هـ/١٩٨٧ م)

ابن تغري بردي (جمال الدين أبوالمحاسن يوسف ت ٨٧٤ هـ / ١٤٧٠م)

– النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ١٦ جزءا في ١٦مجلداً ج ١ – ج ١٢ تحقيق القسم الأدبي بدار الكتب (وهي الأجزاء التي اعتمدنا عليها في البحث)

ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد ،ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٦م)

– تاريخ ابن خلدون" الجزء الخامس" ، (بيروت ،١٩٧١ م)

ابن دانيال (شمس الدين محمد ت ٧١٠هـ / ١٣٠٩ م)

- طيف الخيال – مخطوط مصور ميكروفيلم رقم ٢٦٥٥ أدب – دار الكتب القومية بالقاهرة.

- ابن العديم الحلبي (كمال الدين عمر ، ت٦٦٠هـ)

زبدة الحلب في تاريخ حلب ،"جزءان" ، تحقيق سامي الدهان (دمشق ، ١٩٦٨م)

ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم ت ٦٩٧هـ / ١٢٩٨م)

- مفرج الكروب في أخبار ابن أيوب ، تحقيق حسنين ربيع الجزءان ٤، ٥ (الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ٧٢ – ١٩٧٧ م)

أبوشامة (أبومحمد عبد الرحمن ت ٦٦٥ هـ / ١٢٦٦ م)

- كتاب الروضتين في تاريخ الدولتين (النورية والأيوبية)

- الذيل على الروضتين (القاهرة ،١٩٧٤)

أبوالفدا (الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل ت ٧٣٢هـ / ١٣٣٢ م)

– المختصر في أخبار البشر (الجزء الثالث) تحقيق محمد زينهم عزب، يحي سيد حسين (دار المعارف ، القاهرة ، د. ت)

بيبرس الدوادار
- زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة الجزء ٩ تحقيق زبيدة محمد عطا (دار عين،القاهرة، د – ت)
العيني (بدر الدين محمود ، ت ٨٥٥هـ / ١٤٥١م)
– عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ، تحقيق محمد محمد أمين (الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٤٠٧ هـ /١٩٨٧ م)
القلقشندي (أبوالعباس أحمد بن على ت ٨٢١ هـ / ١٤٠٨ م)
- صبح الأعشى في صناعة الإنشا ١٤ جزءاً في ١٤ مجلداً (دار الكتب ، القاهرة، د. ت)
المعجم الوسيط:"جزءان في مجلد" (المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر، استامبول، د. ت.)
المقريزي (تقي الدين احمد بن على ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤٢ م)
السلوك لمعرفة دول الملوك ٤ أجزاء في ١٢ قسماً (اعتمدنا على الجزء الأول، تحقيق، د/ محمد مصطفى زيادة، القاهرة، ١٩٣٤م)
ياقوت الحموي (شهاب الدين أبي عبد الله ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٨ م)
– معجم البلدان ٥أجزاء في ٥ مجلدات (دار صادر، بيروت ، د. ت)
ثانيا : المراجع العربية والأجنبية :
إبراهيم أحمد العدوي :
– العرب والتتار (، المكتبة الثقافية رقم ٨٨ ، القاهرة ، يوليو١٩٦٣ م)
أحمد عطية عبد الله :
– القاموس الإسلامي (مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة، ١٣٨٣ هـ / ١٩٦٣ م)
سعيد عبد الفتاح عاشور :
– أضواء جديدة على الحروب الصليبية (المكتبة الثقافية رقم ١١٨، القاهرة، ١٩٦٤م)
– الحركة الصليبية" الجزء الثاني"(مكتبة الأنجلوالمصرية جـ ٢١ ،القاهرة، ١٩٧٦م)
عادل هلال :
– العلاقات بين المغول وأوربا وأثرها على العالم الإسلامي (دار عين، القاهرة ، ١٩٩٦م)
علاء طه رزق:
- السجون والعقوبات في مصر – عصر سلاطين المماليك (دار عين ، القاهرة، ٢٠٠٢م)
فاسيلي بارنولد :

- تركستان من الفتح العربي إلـــى الغزوالمغـــولي، تعريـــب صـــلاح الـــدين عثمـــان هاشـــم (الكويت ١٤٠١ هـــ/ ١٩٨١ م)

فؤاد الصياد :

- المغول في التاريخ من جنكيزخان إلى هولاكوخان (دار العلم ،القاهرة ،١٩٦٠)

قاسم عبده قاسم :

- بين التاريخ والفلكلور (دار عين ، القاهرة،١٩٩٣ م)
- في تاريخ الأيوبيين والمماليك (دار عين، القاهرة، ٢٠٠٣م)

Claude Cahen :

The Mongols And The Near East , In Setton (Cd.)

A History Of The Crusades Vol.Ll,Wisconsin, 1969, Pp.710–732. (Setton)

Grenard,F,:

Gengis- Khan , Paris 1935.

Hamilton Gibb:

The Ayyubids, In Setton (Ed)A History Of The Crusades Vol.Ll,Wisconsin, 1969,Pp.693 – 713. (Setton).

Howorth Sir Henry :

History Of The Mongols , Vol. L, London ,1880.

Joseph. R. strayer:

The Crusade Louis Ix, In Setton (Ed.) A History Of The Crusades.Vol.Ll,Wisconsin, 1969,Pp.487 – 518.

Runciman (S.) :

A History of the crusades, Cambridge, Univ. London 1957

Ziada , (M) :

The Mamluk Sultans, A History Of The Crusades Vol.Ll Wisconsin , 1969,Pp.735 - 758. (Setton).